مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

وأما فرعون فكان يقول كما قال الله: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١].

وأما قارون فكان يقول كما حكى الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨].

ثم قال رضي الله عنه: «وأحسن ما وُضِعَتا (أنا) في قول العبد: أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف، ونحوه. و(لي) في قوله: اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي»(١).

ولا مانع أحياناً أن يرجح الباحث مسألة علمية كثر حولها الخلاف؛ فيقول مثلاً: ويترجح لي، أو الراجح في المسألة، أو الذي يظهر في هذه المسألة، أو الذي توصلت إليه مع المشرف أو بعد المراجعة، ويكون ذلك في قضية أو مسألة علمية لابد من معرفة رأي الباحث فيها، وأحياناً قد يطالب الباحث بظهور شخصيته في بحثه...

وهذه المسألة وهي (إظهار شخصية الباحث في رسالته) أو كما عبر الدكتور بكر أبو زيد (إثبات الشخصية في الرسائل)، فقال: «... ومن أسوأ ظواهر التعالم (إثبات الشخصية في الرسائل) بما تلقاه عدد من الطلاب في إعداد رسائلهم عن أساتيذهم في الإشراف والمناقشة، من أن وسيلة القبول، وعنوان النجاح، وقائد الامتياز، أن يخوض الطالب غمار الترجيح والاختيار والقبول والرد؟!.

ولهذا فترى الرسائل محشورة سطورها بهذه العبارات السمجة: ترجيحنا، اختيارنا، رأينا، ونحن نرفض هذا القول، ونحن نرى، ونحن لا نؤيد هذا الرأي، وهذا الحديث صحيح، وذاك ضعيف...»(٢).

ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هذا القول لا يخلو من شدة؛ ولابد لطالب الدراسات

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢ / ٤٧٥)، تحقيق شعيب عبد القادر الأرناؤط، ومع العلم، د. سلمان العودة، (ص: ١٣٣) وما بعدها.

(٢) التعالم (ص: ٧١).

العليا أن يظهر شخصيته في بحثه، خاصة في بعض المسائل العلمية التي كثر فيها الخلاف، ولا مانع أن يقول في عباراته تلطفاً: والذي يرجح في هذه المسألة وبعد البحث يتبين فيما يظهر لي أن الراجح هو القول الآتي... وقد رجحَ أصحاب القول الأول.

والدكتور بكر في كثير من كتبه يقول: والذي يترجح لي أو عبارات نحوها... المهم أن يبتعد الطالب قدر الاستطاعة عن ضمير المتكلم.

وأضيف في هذا المجال -أيضاً- تلطف الباحث في عبارته خاصة فيما يتعلق ببحثه أو رسالته، بحيث لا يشعر جمهور قرائه أنهم يجهلون تماماً الموضوع محل بحثه، فلا يقل - مثلاً - : «أن القارئ قد لا يدرك خطورة هذا الموضوع، أو أننا نعالج موضوعاً بكراً تغافل عنه الباحثون...» (١).

أو أن يقول الباحث -أيضاً- يمدح أستاذه أو مشرفه أو عالماً من علماء عصره أعجب به: ولو حلفت بين الركن والمقام بأنني لم تر عيني مثله، ولم ير هو مثل نفسه، لرجوت ألا أحنث... من السائغ أن يقول هذا الكلام الإمام الذهبي في ابن تيمية -رحمهما الله- لكن من غير المناسب أن يقولها باحث، وإن كان عنده شيء من التمكن، فكم رأت عينه من العلماء الفطاحلة حتى يقول: ما رأت عيني مثل فلان، ولا رأى هو مثل نفسه! أو يقول ما أسفت على شيء أسفي على أنني فاتني لقاء فلان وفلان أو الأستاذ الفلاني أو الدكتور الفلاني، حيث أنه لم يلقهم لمشاغله العلمية ودراساته البحثية، وكأنه قابل الشيوخ، وجمع الأسانيد، والتقى بأعداد كثيرة من العلماء(٢).

وخلاصة القول:

إن على الباحث أن يدرك جيداً أن البحوث العلمية والرسائل الجامعية المتخصصة تقدم لأشخاص وأساتذة بالأصل من ذوي الخبرة والتخصص في علومهم

---

(١) الأصول المنهجية للبحوث والدراسات العلمية، د. أحمد سلامة (ص:٥٧).

(٢) مع العلم، د. سلمان العودة (ص:١٣٥).

وتخصصاتهم وهم أكثر منه علماً وخبرة وقدراً ومعرفة بتخصصاتهم، فيجب أن يحذر من التعالم أمام هؤلاء العلماء...

رابعاً: الإلمام الكافي بأسس وقواعد البحث العلمي:

وهذه من الأمور التي يتعين على طالب الدراسات العليا (الباحث) معرفتها والإلمام بها... وليس هناك بحث بدون منهج وقواعد وأسس يعتمد عليها الباحث في الوصول إلى مراده، ومن أهم النقاط التي تساعد الباحث في بحثه ما يلي:

[١] يستطيع الباحث من خلال منهجية البحث العلمي معرفة وعلم كيف يبدأ؟، وكيف ينتهي؟ مما هو بصدده بحثاً، وتنقيباً، وتحليلاً، وتعليقاً، ونقداً، وضبطاً للنصوص، و... إلخ.

[٢] توفر منهجية البحث للباحث (الوقت والجهد)، وتسهل عليه الوصول للهدف المرجو بيسر وسهولة، وصورة واضحة صحيحة.

[٣] تجنب منهجية البحث الباحثَ الوقوع في الخطأ؛ إذا اتبع المنهجية المناسبة بطريقة صحيحة وبدون خلط، وما إلى ذلك خلال اتباعه خطوات المنهجية المناسبة لموضوعه أو بحثه.

[٤] يتعود الباحث من خلاله الدقة والموضوعية، ويحفظه من الضياع والسأم والشعور بالعجز، كما يعينه على أن يستغل الفائض من حالات الضياع، ويجعله مرتبطاً بالكتاب أو المصادر، ترتيباً وتنظيماً واطلاعاً وصولاً إلى أي معلومات قد تفيده خلال بحثه ودراسته.

[٥] تحبب إليه البحث وتهيئ له الاستمتاع بثمرة الجهد والعمل المبذول، خصوصاً إذا كان مبنياً على الأمانة والدقة والموضوعية واطراح الكسل والخمول.

[٦] تتفتح أمامه طرائق وأساليب البحث؛ ومن ثم قد يكتشف في نفسه مهارات كانت غائبة عنه.

[٧] يتعلم من خلال منهجية البحث كيفية الاستخدام والتعامل مع المصادر

والمراجع، وتتولد لديه حب إعداد وعمل البحوث.

[٨] يتعلم من خلال منهجية البحث: كيفية التعامل مع المعلومات، وكيف يحللها؟ ، ويعرف صدقها من عدمها! وكذا مدى الاستفادة من الفكرة البسيطة المحددة وتنميتها حتى تصبح كبيرة ومفيدة تفيده..

[٩] يتعلم من خلال أسس وقواعد منهجية البحث: الوسائل الصحيحة والخطوات الإجرائية والعملية لجمع المعلومات..[١].

خامساً: الاستقلالية وعدم التسليم واتساع الأفق:

يجب على الباحث أن يكون ذا شخصية مستقلة، ولا يتبع أي فكرة أو معلومة إلا بدليلها، ويجب أن لا يسلم بكل ما يقرأ؛ بل يُخْضِعُ ما يقرأ لميزان نقدي علمي... وأن لا يسلم تسليماً مطلقاً بالآراء التي سُبِقَ بها وأقرها من سبقه إلا ما كان يعضده الدليل؛ ولابد أن يقف عند المقدمات ويتدارسها، فقد تقوده إلى نتائج تخالف ما ذهب إليه السابقون.

وعلى الباحث أن يكون واسع الأفق قادراً على الاعتراف بأنه من الممكن أن يكون على خطأ، وقد يؤدي الافتقار إلى هذه القدرة إلى الغرور أو الرضا المفرط عن النفس.

وترتبط بسعة أفق الباحث قدرته على:

(أ) نقد الفكرة أو العمل، سواء أكان له أم لغيره، فقد يتوافر فيه الوعي والتجرد عن الهوى، وهذا يجعل نقده مفيداً وجيداً للبحث العلمي...

(ب) تحرر العقل والتفكير من التحيز والجمود والخرافات، والقيود التي تفرض على الشخص أفكاراً خاطئة وأنماطاً غير سليمة من التفكير[٢].

سادساً: الأمانة العلمية:

الأمانة العلمية في البحوث العلمية من أهم عناصر وصفات الباحث، والأمانة في

---

(١) كتاب الوافي أسس وخطوات تحقيق ونشر المخطوطات، عبد الله بن أحمد الحوثي (٢ / ٥٧٨).

(٢) فن كتابة الأبحاث والرسائل الجامعية منهجياً، أنور زناتي (ص:٦٣)، البحث العلمي، د. رجاء وحيدي (ص:٦٤).

البحث العلمي تعني: إسناد الفكرة أو الرأي المدون إلى مصدره الأصلي، فلا يدعي ما لغيره من علم وينسبه لنفسه، كما يقول الإمام السيوطي - رحمه الله - في (المزهر): «ولذلك لا تراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء، مبيناً كتابه الذي ذكره فيه».

والتأكيد على التزام الأمانة العلمية في مجال الدراسات والبحوث أوجب من أي مجال آخر، حيث إن الباحث لا يبدأ من فراغ؛ بل المفروض أن يبدأ من حيث انتهى الآخرون، وعليه أن يتقصى عن الخلفية العلمية للموضوع الذي يبحث فيه، وقد يلجأ في سبيل تعزيز وتدعيم وجهة نظره إلى الاستشهاد ببحوث الآخرين وأفكارهم ذات الصلة ببحثه، وهنا يكون عليه الحذر عند الاقتباس أو الاستشهاد بالإشارة إلى المصدر الذي رجع إليه، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد...

ومن الأمانة العلمية: أن لا يسطو على بحوث غيره ونتائجها دون أية إشارة إليها، فهذا يعد سرقة أو إن شئت فقل: قرصنة على أعمال الآخرين ومصادرتها...

ومن الأمانة العلمية: عدم التدقيق في فهم آراء الآخرين، والتسرع في تأويلها، وحملها على معنى غير معناها الجلي الواضح من عبارتها، بغية تعريضها للنقد أو الهجوم على غير ما تستحقه، بما يعد تسلطاً فكرياً.

وعلى الباحث الأمين المنصف ألا يشوه الآراء والأفكار التي قال بها غيره؛ لأنها لا تروقه أو لا تعجبه؛ كما أن عليه أن لا يزين أو يبالغ في إطراء تلك الأفكار والآراء التي كان بها معجباً أو لها نصيراً[1].

ومن عدم الأمانة العلمية: أن يحاول الباحث بعد انتهائه من بحثه أن يلوي عنق الحقائق والأدلة لكي تتماشى مع رأيه هو وهواه؛ وإنما عليه أن يكون أميناً في تقرير الحقيقة مهما بدت مخالفة لميوله أو معارضة لهواه.

ومن الأمانة العلمية: أن يعترف بالجهود التي بذلت سواء من سابقيه أم

---

(١) انظر: الأصول المنهجية لإعداد البحوث العلمية، د. أحمد سلامة (ص:٥٣).

معاصريه، والتي تتصل بالموضوع الذي يعالجه، فلا يتغاضى عنها؛ بل ينبغي أن يشير إليها ويستفيد منها، وأن يناقش الرأي المخالف منها بأدب. تقديراً منه لجهود هؤلاء وأولئك...

وخلاصة القول:

إن الأمانة ليست محصورة في النطاق العلمي أو منهجية البحث؛ أو في الرسائل العلمية؛ بل هي في نظر الشرع الحكيم واسعة الدلالة، أساسها الضمير، ومناطها الشعور الحي من قبل الإنسان بتبعيته في أي أمر قد يوكل عليه أو يقوم به من تلقاء نفسه أو حتى الفرائض الإسلامية من صلاة وصيام وزكاة...

كل عمل من الأعمال أساسه الأمانة؛ ولذلك يقول المصطفى ﷺ: **(لا إيمان لمن لا أمانة له)** (١)، وللأمانة أثر فعال في جميع مناحي الحياة، فما من عمل يعمله الإنسان من أمور حياتية إلا ويشترط فيه الأمانة، فالمدرس إذا لم يكن أميناً في نقل المعلومات لطلابه لا يصلح أن يكون مربياً ومدرساً ومنشئاً لجيل الأمة، وما ينطبق على المدرس ينطبق على غيره من أصحاب المهن والحرف كالمهندس والطبيب والكاتب وكذلك الباحث (٢).

وقد اهتم الإسلام بالأمانة في الكتابة بأن تكون على وفق ما يمليه حامليها، وعلى وفق الأصل الذي تنسخ عنه، فلا يكن فيه تغيير ولا تبديل ولا زيادة ولا نقص، وإذا كانت من إنشاء كاتبها فالأمانة فيها أن تكون مضامينها خالية من الكذب والتلاعب بالحقائق، إلى غير ذلك (٣).

ففي آية الدَّين في سورة البقرة آية (٢٨٢) درس عظيم على الأمانة في الكتابة ... وهذا أيضاً درس لكاتب البحث العلمي أن يكتب بأمانة وصدق وتجرد...

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٥٦).

(٢) كتاب الوافي في أسس وخطوات تحقيق ونشر المخطوطات، عبد الله أحمد الحوثي (٢ / ٥٣٨).

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني (١ / ٦٥٠).

سابعاً: عدم التحيز والتعصب المذهبي:

التعصب داء قديم لا يليق بطالب الدراسات العليا ولا الباحث أن يقع فيه فضلاً عن العالم... والتعصب لا يقع فيه إلا الجهال، أما العلماء المحققون فهم ينهون عنه ويحذرون منه، ولذلك فإن الإنسان الذي عنده أصالة وتميز لا يتأثر بهذا التعصب؛ بل من الوفاء لشيخ أو مذهب أو فئة أن نخالفهم الرأي في المسائل التي رأينا أن الدليل فيها مع غيرهم.

والغريب في التعصب ـ حقاً ـ أن بعض الباحثين وطلبة العلم يرضي التعصب للأحياء، ولا يرضى التعصب للأموات، فهو يلمز بعض الناس بأنه حنبلي، أو حنفي متعصب، ولكنه هو متعصب لفلان أو علان من الأحياء، وهؤلاء وإن كانوا علماء أجلاء، فنقول: إذا كان ولابد من التقليد، وإذا كان ولابد من التعصب فالتعصب ـ في اعتقادي ـ للميت أولى من التعصب للحي؛ لأن الميت عالم جليل قد يكون ممن أجمعت الأمة على فضله؛ كالأئمة الأربعة الذين اتفقت الأمة على جلالتهم وفضلهم، وسلمت لهم أموزها في الجملة؛ أما الحي ـ من شيخ أو مذهب أو فئة ـ فلا تؤمن عليهم الفتنة.

نقول ذلك تنزلاً، وإن كنا لا نقر التعصب ولا التقليد لحي ولا لميت؛ بل ينبغي على للإنسان خاصة الباحث أن يحرص على أن يكون اتباعه للكتاب والسُّنَّة وللعلماء العاملين بهما؛ بمعنى: أن يأخذ منهم الحكم بدليله (١).

إن الباحث الذي يسعى للانتقاص من مادة علمية لمؤلف ما أو جهة ما، أو مذهب ما، أو فئة ما، قاصداً من ذلك الافتراء والتشويه والتشهير؛ لأي غرض مادي أو مذهبي؛ هذا الباحث بعيد عن الإنصاف والأمانة العلمية، يحتبس في نفسه الحقد والتعصب والشعور بالنقص، ويدعي العلم والموضوعية وهو أبعد الناس عن ذلك (٢).

---

(١) راجع: مع العلم، د. سلمان العودة (ص: ١١٣).

(٢) راجع: كتاب الوافي في أسس وخطوات تحقيق ونشر المخطوطات، عبد الله الحوثي (٢ / ٥٤٧).

ولعلي أذكر بعض الأمثلة على هذه الخصلة الدنيئة القبيحة (التعصب المذهبي):

(أ) **حملة الأحناف على الشافعية:** حتى وصل الحال بهم إلى تحريم زواج الحنفي من شافعية، ثم تجويزهم إياه قياساً على أهل الكتاب، دون تجويزهم زواج الشافعي من حنفية.

ومن ذلك ما قاله صاحب كتاب مراقي الفلاح عن ماء البحر النجس الذي وقع فيه حيوان مات وانتفخ، قال: فإن عجن بمائها يلقى للكلاب أو يعلف به المواشي، وقال بعضهم: يباع لشافعي، فقد سوى هذا الفقيه بين الكلاب والشافعية.

بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك، فقرأنا في ترجمة قاضي دمشق الحنفي محمد بن موسى البلاساغوني الذي توفي سنة (٥٠٥هـ) قوله: لو كان لي أمر لأخذت الجزية من الشافعية.

ثم إن كثيراً من فقهاء الأحناف قد أفتوا ببطلان صلاة الحنفي وراء إمام شافعي، قال ابن الهمام: وقال أبو اليسر: اقتداء الحنفي بشافعي غير جائز، لما روى مكحول النسفي في كتاب له سماه الشعاع أن رفع اليدين في الصلاة عند الركوع والرفع منه مفسدة، بناءً على أنه عمل كثير، وفهم من قيد جواز الاقتداء بهم كقاضيخان، بأن لا يكون متعصباً ولا شاكاً في إيمانه، ويحتاط في موضوع الخلاف، ومثل ذلك قال البابرتي في كتابه شرح العناية على الهداية على هامش فتح القدير (١/ ٣١٠).

(ب) **وبالمقابل رد الشافعية على الحنفية:** بأن ألفوا كتباً ينقصون فيها مذهب الحنفية، ويحطون من شأنه ويسخرون من بعض أقواله، وأشهر كتاب ألفوه في هذا المجال كتاب: (مغيث الخلق في ترجيح المذهب الحق)، لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني..[1].

هذا التعصب المذهبي لدى العلماء والباحثين ولَّدَ مشكلة خطيرة هي تسرب المذهبية الحزبية إلى صفوف الطلبة وإفساد روابطهم وعلاقاتهم، وتدريبهم على

(١) راجع: للتوسع في هذه الأمثلة: تحاسد العلماء، عبد الله الموجان (ص:٢٣٩) وما بعدها، وبدعة التعصب المذهبي، لمحمد عيد عباسي.

علي الطبري المعروف بالكيا الهراسي... فقبضت السلطات عليه وأودعته السجن.. وهنا تنبه لهذه الظاهرة الخطيرة العقلاء من كلا الطرفين وكلموا السلطان فأطلق سراحه...

وتصور أخي الباحث القدوة والأخلاق التي كان الطلبة يتلقونها من أساتذتهم وأشكال الكيد والتآمر التي كانت تُدبَّر بينهم، وأمثال ذلك مما يفرزه خلق التعصب المذهبي(١)، وهذا مما لا يجوز أن يُستَنَّ به اليوم؛ بل تؤخذ منه العبرة ليس أكثر..

ثامناً: تجنب الحماس العاطفي:

هناك ضرورة للحذر من الحماس العاطفي الذي يظهره الباحث ـ عادة ـ في صيغة مبالغات تقتصر على إبراز الإيجابيات وتعميم السلبيات التي قد تكون غير أساسية وحالات محدودة، فقولنا بأن القرآن الكريم كلام الله لا يسوغ لنا القول بأنه يشمل كل شيء على الإطلاق، وفيه كل النظريات العلمية، ويكشف لنا كل الحقائق الكونية المتصلة بالإعلام -مثلاً- وكل الأساليب الاتصالية وتقنياتها الإنتاجية، وكل ما يستنبط منه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فقوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] لا يعني أن القرآن فيه كل شيء من أمور الدنيا والدين بتفاصيلها، ولا يترك مجالاً للاجتهاد البشري، وقد ورد في تفسير هذه الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالكتاب الكتاب المحفوظ في العرش؛ فتكون الآية دالة على إحاطة علم الله بجميع أحوال المخلوقات كلاً وتفصيلاً تاماً، كما قال ﷺ فيما رواه البخاري: (جف القلم على علم الله...)(٢).

الثاني: استظهره الرازي بأن المراد منه القرآن؛ فتكون الآية دالة على كمال الشريعة وإحاطة القرآن بجميع أصول الأحكام ومبادئ الإسلام وأخلاق الدين(٣).

---

(١) راجع: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس، د. ماجد الكيلاني، (ص: ١٥ إلى ٣٢).
(٢) رواه البخاري في كتاب القدر باب (٢) جف القلم...، (١/ ٢١٠).
(٣) التفسير المنير في الأخلاق والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي (٧/ ١٦٩).

وقولنا بأن النظريات العلمية هي اجتهادات بشرية، لا تستند إلى الاستنباط من القرآن والسُّنَّة لا يسوغ قولنا: إنها فاسدة كلها، ومرفوضة إسلامياً.

لهذا فإن هذه الآية لا تسوغ القول بأن لدينا في القرآن والسُّنَّة ما يغنينا عن الاجتهادات البشرية عند غير المسلمين، وإن دراسة تلك الاجتهادات ومحاولة الاستفادة منها جهل وعمالة للغرب وتبعية لأعداء الإسلام.

فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، والعبرة في الأمور الاجتهادية ليس ما مصدرها بقدر معرفة درجة صلاحيتها وشرعيتها وفائدتها.

ولا يضر المسلم أن يرى الحق في جانب غير المسلم فيقف معه ويتعاون معه في نطاق، وأن يرى الباطل في جانب أخيه المسلم فيقف ضده ويقاطعه في نطاقه إن عجز عن إصلاحه؛ بل يجب على المسلم أن يفعل ذلك، فالحق أحق أن يتبع[1].

هذه بعض أهم الصفات الواجب توافرها في الباحث؛ وهناك صفات أخرى تركناها خشية الإطالة، ومنها على سبيل الإجمال:

المرونة الفكرية، والتأمل، والملكة النقدية، وأن يكرس الباحث نفسه لعمله مع امتلاك الوقت الكافي، ثم الكفاءة العلمية، وتوفر الإمكانات المادية، وتوفر الحماس والرغبة في البحث، ورحابة الصدر، وأن يتسم الباحث بالهدوء، وأن يكون عنده القدرة على التعبير والاستنتاج، وأن يراعي آراء الآخرين... إلخ.

(١) قواعد أساسية في البحث العلمي، د. سعيد صيني (٥٤٤).